Journal Of the Iraqia University (74-3) October (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

الفن القصصي في النثر العربي القديم (من الجاحظ إلى ابن المقفع)

ساره عامر كاظم عبّاس الكاظمي

المديرية العامة لتربية ديالى

The Art of Narrative Writing in Classical Arabic Prose (From Al-Jahiz to Ibn al-Muqaffa')

Sarah Amer kazem Abbas Al-Kazemi
saraamare3@gmail.com

المستخلص:

يتناول هذا البحث تطور الفن القصصي في النثر العربي القديم من خلال دراسة نماذج من أعمال الجاحظ وابن المقفع. يركّز على السمات الفنية المشتركة بينهما، مثل التوظيف الرمزي والمقاصد الأخلاقية، مع إبراز الفروقات في الأسلوب والسياق الثقافي. يبيّن البحث كيف تطورت القصة من وسيلة تعليمية رمزية إلى بناء جمالي مستقل. كما يستعرض دور كل من الكاتبين في توظيف القصّ لخدمة الفكر والفلسفة والمجتمع. يعتمد البحث المنهج المقارن والتحليل الأدبي للكشف عن أبعاد النصوص. ويُبرز تأثير السياق السياسي في تشكيل البنية السردية.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، ابن المقفع، الفن القصصي، النثر العربي القديم، الرمزية.

Abstract:
This research examines the development of narrative art in ancient Arabic prose by examining examples from the works of Al-Jahiz and Ibn al-Muqaffa. It focuses on the artistic features shared by both writers, such as symbolic use and moral intentions, while highlighting differences in style and cultural context. The research demonstrates how the story evolved from a symbolic educational tool to an independent aesthetic construct. It also explores the role of each writer in employing storytelling to serve thought, philosophy, and society. The research adopts a comparative approach and literary analysis to uncover the dimensions of the texts. It highlights the influence of the political context in shaping the narrative structure.
Keywords: Al-Jahiz, Ibn al-Muqaffa, narrative art, ancient Arabic prose, symbolism.

المقدمة:

يعد النثر العربي القديم أحد أبرز المكونات التي أثرت في تطور الأدب العربي، حيث أسهم في بناء أساليب فنية وثقافية ساهمت في تشكيل هوية الأدب العربي كما نعرفه اليوم. ومن بين هؤلاء الأدباء الذين ساهموا في بلورة هذا الفن، برز كل من الجاحظ وابن المقفع كرواد مهمين في تطوير فن القصة النثرية في الأدب العربي. وعلى الرغم من اختلاف بيئاتهما الفكرية والأدبية، فقد أسهما بشكل فعال في إرساء القواعد السردية والفنية التي ستظل تلهم الأدب العربي على مر العصور.الجاحظ، الذي يعد من أشهر أدباء العصر العباسي، قدم لنا أعمالًا أدبية غنية في محتواها الفني، لا سيما في كتاباته مثل *البيان والتبيين* و*البخلاء* ، حيث كان له دور كبير في تطور فن السرد العربي. وقد مزج الجاحظ في أعماله بين الفائدة التعليمية والجانب الفكري، مما جعل قصصه تتميز بالقدرة على استيعاب الرمزية والتهكم الاجتماعي، إضافة إلى ما تميز به أسلوبه من طرافة وحيوية, وأما ابن المقفع، الذي يُعتبر أحد أبرز كتّاب العصر الأموي، فقد قدم لنا *كليلة ودمنة*، العمل الذي يعد حجر الزاوية في الفن القصصي العربي. من خلاله، استطاع ابن المقفع أن يدمج بين الحكمة الشعبية والفكر الفلسفي، مستخدمًا الحيوانات والشخصيات الرمزية لنقل رسائل أخلاقية وفكرية عميقة, ولكن بالرغم من التأثير الكبير الذي خلفه كل من الجاحظ وابن المقفع، لم يتم دراسة تجربتهما القصصية بشكل شامل من منظور نقدي فني حديث. فهذا البحث يهدف إلى دراسة تطور الفن القصصي في النثر العربي القديم من خلال أعمال هذين الأديبين الكبيرين، لا سيما فيما يتعلق بكيفية استخدامهما للأدوات السردية، وأساليب الكتابة، والرمزية التي وضعاها كأساس لفن القصة النثرية, وبهذا، يستعرض البحث أهم السمات الفنية

المشتركة بين الجاحظ وابن المقفع، وكذلك الفروق بين أساليبهما الفنية وأثر السياق الثقافي والفكري في تشكيل هذين الأثرين الأدبيين. كما يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على كيفية تطور القصة من إطار تعليمي رمزي إلى بناء فني أكثر استقلالًا وجمالية.

مشكلة البحث

رغم غزارة النثر العربي القديم وثرائه، لا يزال الجانب الفني في القصة النثرية – خاصة عند روّادها الأوائل كالجاحظ وابن المقفع – يحظى باهتمام نقدي محدود مقارنة بالشعر أو المقامات. فمع أن كتاباتهما تمثل ملامح أولى لتشكل الفن القصصي العربي، إلا أن معظم الدراسات تركز على المضامين الأخلاقية أو الفكرية دون تحليل معمق للسمات الفنية السردية، مثل البناء، الشخصية، الزمن، التوظيف الرمزي، والأسلوب. ومن هنا تبرز مشكلة البحث:إلى أي مدى أسهم الجاحظ وابن المقفع في بلورة معالم الفن القصصي في النثر العربي القديم، وكيف تختلف تجربتهما في إطار التطور الفني لهذا النوع؟

أهمية البحث

تنبع **أهمية البحث** من الحاجة لفهم تطور الأدب العربي القديم وخاصة في مجال النثر القصصي، كأداة ثقافية وفكرية تعكس المجتمع وتوجهاته. فالنثر العربي في فترتي الجاحظ وابن المقفع له تأثير كبير على الأدب العربي بشكل عام، ويُعتبر هذا البحث مرجعًا لفهم كيفية تطور الأسلوب السردي العربي وانتقاله من القصص الرمزية إلى نصوص ذات بناء فني أكثر تعقيدًا. كما يعزز البحث قدرة الباحثين على استكشاف العلاقة بين الأدب والسياق الاجتماعي والسياسي، ويُسهم في تطوير الدراسات الأدبية الحديثة التي تنظر إلى النصوص القديمة بعين نقدية جديدة.

أهداف البحث

١. **دراسة تطور الفن القصصي في النثر العربي** بين الجاحظ وابن المقفع، وتحليل مراحل هذا التطور من حيث الأسلوب والمحتوى.

٢. **التحليل المقارن** بين أسلوب الجاحظ وأسلوب ابن المقفع في بناء القصص السردية، مع التركيز على أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

٣. **دراسة السياق الثقافي والفكري** الذي أثر في توجهات كل من الجاحظ وابن المقفع في كتابة القصص، وما إذا كان ذلك مرتبطًا بتحديات اجتماعية أو سياسية.

٤. **الاستفادة من النقد الحديث** لتقديم قراءة جديدة للنثر العربي القديم، وتوسيع نطاق دراسة النثر القصصي بما يتماشى مع الأدوات النقدية المعاصرة.

فرضية البحث

افتراض البحث يقوم على أن **الفن القصصي في النثر العربي** قد شهد تحولًا تدريجيًا من القصص الرمزية والتعليمية التي اعتمدت على الرمزية والتوجيه الأخلاقي، إلى بناء أكثر استقلالًا وجمالية في استخدام الأسلوب السردي. هذا التحول كان مدفوعًا بتغيرات اجتماعية وفكرية وثقافية، فضلًا عن تأثير الإبداع الفردي للكتاب مثل الجاحظ وابن المقفع، الذين سعوا إلى معالجة قضايا المجتمع بشكل مختلف.

منهجية البحث

سيتبع البحث **المنهج المقارن**، وذلك من خلال تحليل الأدب القصصي لدى الجاحظ وابن المقفع، مع التركيز على الفروق البنيوية والموضوعات الأخلاقية في كل منهما. سيتم استخدام منهج **التحليل الأدبي** والنقدي من خلال تحليل النصوص الأدبية بشكل دقيق، مع المقارنة بين الأساليب السردية، التوظيف الرمزي، وتنمية الأغراض التعليمية.

المبحث الاول: الفن القصصي في نثر ابن المقفع

المطلب الأول : الملامح العامة لأسلوب ابن المقفع

أولا: تأثير الترجمة الفارسية والهندية إنّ ابن المقفع يُعدّ واحدًا من أبرز أعلام النثر العربي في العصر العباسي، وقد تأثر تأثرًا بالغًا بالثقافات الشرقية، لاسيّما الفارسية والهندية، نتيجة لعمله في الترجمة والنقل عن هاتين الحضارتين. وقد كان ابن المقفع فارسياً الأصل، واطلع على كتب الحكمة والأدب في لغتها الأصلية أو مترجمة إلى الفهلوية، وبرز دوره في التوسّط الثقافي بين الشرق واللغة العربية, وظهر هذا التأثر بشكلٍ واضح في عمله الأهم **"كليلة ودمنة"**، وهو في الأصل كتاب هندي يُعرف بـ"بنجاتنترا"، وقد تُرجم إلى الفهلوية قبل أن ينقله ابن المقفع إلى العربية بأسلوب أدبي محكم، مع إضافات وتنقيحات جعلته أقرب إلى نص عربي أصيل من مجرد ترجمة.(عبود، ٢٠٢٥: ١٢٥)إنّ البنية القصصية التي اعتمدها ابن المقفع لم تكن مألوفة في الأدب العربي قبل العصر العباسي، إذ لم يعرف العرب سابقًا هذا النوع من القصص الرمزية ذات البناء الطبقي أو القصص داخل القصص. هذا الأسلوب الهندي الفارسي، الذي يعتمد على **الإطار القصصي** (قصة أمّ تحتوي على قصص فرعية)، أثرى الأدب

العربي، وفتح المجال لتقنيات سردية جديدة غير معهودة في الثقافة البدوية ذات النزعة الخطابية أو الشعرية. (الحكيم، ٢٠٢٣: ٤٧)إضافةً إلى البناء القصصي، فقد استفاد ابن المقفع من الطريقة الفارسية في **الوعظ الرمزي غير المباشر** .فبدلاً من الخطاب المباشر، يستخدم الحيوان كشخصية تمثيلية تعبّر عن الإنسان ومشكلاته. فالقصة تُروى على لسان ثعلب أو أسد أو غراب، لكنها تخفي في أعماقها **رسائل سياسية وأخلاقية عميقة،** وهي سمة تنتمي إلى تراث الحكمة الشرقية التي كانت تُوجّه السلطان أو الأمير بلغة الرموز، اتقاءً للبطش السياسي. (هلسا، ٢٠١٨: ٢٠٣)بل إنّ الكتابة عند ابن المقفع ليست فقط مجرّد ترجمةٍ شكلية للنص الأصلي، بل هي إعادة صياغة بأسلوب عربي متين، مفعم بالإيجاز والدقة، بحيث جاءت قصصه حاملةً لطابع الحكمة الفارسية، لكنها ملبّسة بثوب لغوي عربي فصيح ومتين. وهذا ما أكسبه مكانة خاصة بوصفه رائدًا لفن القص في الأدب النثري العربي، وممهّدًا لتطوره على يد من جاء بعده، كالجاحظ وبديع الزمان. (الحكيم، ٢٠٠٧: ٨٨)

ثانيا: الطابع الأخلاقي والرمزي في كتاباته يتسم أسلوب ابن المقفع بطابعٍ أخلاقي واضح، يعكس اهتمامه العميق بتقويم السلوك الإنساني ونشر الحكمة العملية، وقد عبّر عن هذه الغاية من خلال أسلوب رمزي يبتعد عن المباشرة والتقرير. فالهدف عنده لم يكن مجرد الحكاية، بل **إيصال قيمة أو مبدأ أخلاقي وفكري** مغلف بطابع قصصي جذّاب, ولقد كان ابن المقفع يسعى إلى **تربية النفس والفكر،** مستفيدًا من الحكاية وسيلة لتبليغ مواعظ خفية وغير صادمة. وكانت **الرمزية الحيوانية** أداة بارعة في هذا المجال، إذ يُسند الصفات الإنسانية للحيوانات، ويُظهر بها طباع البشر، فيضع بذلك القارئ في مواجهة مرآوية مع ذاته. فالثعلب عنده يمثل الحيلة، والأسد يمثل السلطان، والحمامة تمثل البساطة أو الضعف، وغيرها من الرموز التي تحمل دلالات نفسية واجتماعية, وإنّ هذه الرمزية تمنح النصوص عمقًا متعدد الطبقات: فمن يقرأها على السطح، يجد حكاية ممتعة، ومن يتأملها بعمق، يكتشف رؤية فلسفية حول السلطة، والخيانة، والعدالة، والوفاء. وقد ساعد هذا البعد الرمزي على جعل نصوص ابن المقفع خالدة، إذ يمكن قراءتها في كل عصر من زوايا جديدة. (كوثراني، ٢٠١٢: ٢٩١)كما أن **الطابع التعليمي** في نصوصه يعبّر عن نزعة عملية تربوية، تتجاوز الوعظ التقليدي إلى الإقناع العقلي، وهذا يتجلى في كثرة استخدامه للأمثال، والمواقف الجدلية، والحوار العقلاني، مما يجعله قريبًا من أسلوب الفلاسفة في إقناع القارئ دون تعنيف أو تقريرية, وإنّ الفن القصصي عند ابن المقفع ليس فقط وسيلة للتسلية، بل هو خطاب مزدوج: ظاهر مسلٍ، وباطن تربوي حكيم. وهذا ما يجعله من المؤسسين الأوائل لما يمكن تسميته بـ"القص العربي الأخلاقي الرمزي"، وهو نوع لم يكن مألوفًا في الأدب الجاهلي أو حتى في بداية العصر الأموي. (أباظة، ٢٠٢٢: ١١٢)

المطلب الثاني :التحليل الفني لنماذج من "كليلة ودمنة"

أولًا :بنية القصة الإطارية تُعدّ "كليلة ودمنة" من أوائل النصوص التي وظّفت *البنية الإطارية* في الأدب العربي، وهي تقنية سردية تقوم على وضع مجموعة من القصص داخل إطار قصصي واحد، يُمثّل القصة الأم التي تتفرع منها الحكايات الأخرى. في هذا العمل، يقوم الملك دبشليم بطلب الحكمة من الفيلسوف بيدبا، فيبدأ الأخير بسرد قصص رمزية على لسان الحيوانات ليقدّم من خلالها العبرة والعظة. (هيكل، ٢٠٢٥: ١٣٤)هذه البنية تتيح تعدد الأصوات السردية، وتمنح العمل عمقًا تأويليًا، حيث يتفاعل القارئ مع القصص على أكثر من مستوى. فالقصة الإطارية لا تكتفي بتأطير القصص الفرعية، بل تضيف *بُعدًا فلسفيًا وتعليميًا* للنص، وتبرز العلاقة بين الحاكم والمفكر، السلطة والحكمة، وهي إشكالات مركزية في فكر ابن المقفع, وكما أن الترابط بين القصص لا يتم عبر التسلسل الزمني، بل عبر *الوظيفة التعليمية والمغزى الأخلاقي*، مما يجعل كل قصة لبنة في بناء منظومة فكرية واحدة ذات دلالات عميقة، تدور كلها حول علاقة الإنسان بالسلطة، والمجتمع، والفضائل، والرذائل. (البشري، ٢٠٢٤: ٧٦)

ثانيًا :شخصيات الحيوان ودلالاتها الرمزية

من أبرز التقنيات الفنية التي استخدمها ابن المقفع في "كليلة ودمنة" هي شخصنة الحيوان، وهي تقنية تُحوّل الحيوانات إلى كائنات ناطقة ومفكرة، تمثّل نماذج بشرية بأسماء وصور رمزية.(الجاحظ، ٨٥٠م: ٢٧٤)

١. **الأسد** في القصص يرمز عادة إلى السلطان أو الحاكم، ويظهر غالبًا في موقع القوة والقرار، ويعكس مواقف متعددة من الحكمة أو التهور، بحسب السياق القصصي.

٢. **الثعلب** يمثّل الماكر والمخادع والسياسي الانتهازي، وغالبًا ما يُظهر مهارات خطابية ومناورات عقلية لإقناع الملك أو خداع أعدائه.

٣. **الغراب، الحمامة، السلحفاة، والبقرة**، وغيرهم، يرمزون إلى طبقات متعددة من الناس: البريء، الحكيم، الحذر، البسيط، المؤمن، وغيرهم.

وما يميز هذه الرمزية أن القارئ يتفاعل مع الشخصيات دون أن يشعر بأنه يُحاكم بشكل مباشر. فالنص يقدم له أنماطًا سلوكية يمكن أن يراها في الواقع، لكنه لا يُشعره بالوعظ المباشر أو الاتهام, وكما أن هذه الرمزية تُعتبر حيلة فنية لحماية النص من بطش الحكّام، فالرسائل المبطّنة تمرّ عبر ألسنة الحيوانات، لكن المقصود بها الإنسان، وتحديدًا أصحاب السلطة والنفوذ. (عبود، ٢٠٢١: ٥٩)

ثالثًا :البناء الحواري والتقنيات السردية

يعتمد ابن المقفع اعتمادًا كبيرًا على *الحوار* كوسيلة لبناء القصة ونقل الأفكار. فالحوار في "كليلة ودمنة" ليس فقط عنصرًا دراميًا، بل هو أداة تفكير ونقاش عقلي. تدور غالبية القصص في إطار جدلي، حيث يتبادل الشخصيات – وغالبًا من الحيوانات – الآراء والنصائح والأمثال, ويتميّز هذا الحوار بأنه: (ابن قتيبة، القرن الثالث الهجري: ١٩٨)

١. عقلاني، قائم على الإقناع والتبرير المنطقي.

٢. غنيّ بالأمثلة والحكم المأخوذة من التجربة البشرية.

٣. يُعبّر عن مواقف متعددة، ما يتيح تعدد الأصوات.(Polyphony)

كذلك فإن السرد في "كليلة ودمنة" يتسم بتقنيات متعددة منها:

١. **القصة داخل القصة** :كما في قصة "الأسد والثور"، نجد أن الحكاية الرئيسية تتضمن قصصًا فرعية تكمّل معناها وتدعمه.

٢. **التناص** :أي تضمين نصوص أو أمثال أو مفاهيم من ثقافات سابقة، كالزرادشتية والهندية، في سياق عربي جديد.

٣. **الاختزال والتكثيف** :النص لا يسرف في الوصف، بل يعتمد على البناء الرمزي والإيجاز البليغ.

وتُظهر هذه التقنيات قدرة ابن المقفع على المزج بين *البعد الفني* و*الغاية التعليمية* في آنٍ معًا، وهو ما يمنح نصوصه قوة الاستمرار والانتقال من جيل إلى جيل.(بدوي، ١٩٨٠: ٤٥)

المطلب الثالث :الأبعاد الفكرية والتربوية

يُعد كتاب *كليلة ودمنة* أحد أهم الأعمال النثرية في التراث العربي، ليس من جهة جمالياته الفنية فحسب، بل لما يحتويه من أبعاد فكرية وتربوية عميقة، تعكس رؤية ابن المقفع للإنسان والمجتمع والحكم، وتسعى إلى إصلاح السلوك من خلال الحكاية الرمزية ذات الأثر البالغ في النفس. لقد اتخذ ابن المقفع من الأسلوب القصصي وسيلة لإقناع القارئ وتوجيهه دون مباشرة أو فرض، بل من خلال ما تُنتجه الحكاية من عبرة، وما توحي به الرموز من دلالات. وفي هذا الإطار تتجلى وظيفتان محوريتان للحكاية: الإقناع والنصح من جهة، والتعبير الرمزي عن الواقع السياسي والاجتماعي من جهة أخرى. (ضيف، ٢٠٠٠: ١٤٢)

أولًا: دور الحكاية في الإقناع والنصح إن اعتماد ابن المقفع على القصة لم يكن مجرد اختيار فني، بل كان توجهاً مدروسًا مبنيًا على إدراك لطبيعة النفس البشرية التي تنفر من التوجيه المباشر وتميل إلى التلقي غير الصدامي. لذلك جاء النصح في *كليلة ودمنة* مغلّفًا بحكايات على لسان الحيوانات، مما أضفى عليه طابعًا ممتعًا، ومكّنه من الوصول إلى عقل القارئ وقلبه معًا, وفي كل قصة من قصص الكتاب، نجد موقفًا حياتيًا يُطرح، ويُعرض على لسان شخصية حيوانية، لكن القارئ سرعان ما يدرك أن هذه الشخصيات ليست إلا تجسيدًا لأنماط بشرية، وأن الصراع بينها يعكس صراعات اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية واقعية. هكذا يندمج المتلقي في الحكاية، ويجد نفسه يتبنى موقفًا أو يعيد النظر في مواقفه وسلوكياته، دون أن يشعر بأنه يُلقَّن أو يُملى عليه شيء. (النجار، ١٩٨٨: ٦٣)وقد اعتمد ابن المقفع في ذلك على تقنيات الإقناع غير المباشر، منها: الحكاية المترابطة، والاستطراد القصصي، والحوار الجدلي بين الشخصيات، بالإضافة إلى تضمين الأمثال والحكم ذات الأثر التربوي الكبير. فنحن لا نجد في الكتاب شخصًا يقول "كن حكيمًا"، بل نجد سلحفاة تنقذ نفسها بالحكمة، ولا نجد من يقول "لا تصدق النميمة"، بل نرى الثور يدفع حياته ثمنًا لتصديقه وقيامه بردة فعل غير مبنية على التثبت, ومن خلال هذه البنية، تتحول القصة إلى مرآة للنفس والواقع، تتيح للقارئ إعادة النظر في مواقفه، وفهم البيئة التي يعيش فيها بطريقة رمزية بعيدة عن المواجهة، لكنها أكثر عمقًا في الأثر. (الجابري، ٢٠٠٦: ٣١٠)

ثانيًا: التوظيف الرمزي للمضامين السياسية والاجتماعيةمن أبرز السمات الفكرية التي تميز بها كتاب *كليلة ودمنة* هو قدرته الفائقة على **ترميز الواقع**، لا سيما ما يتعلق بالحكم والسياسة والعلاقات الاجتماعية. لقد عاش ابن المقفع في عصرٍ اتسم بالتقلبات السياسية، واشتداد الصراعات داخل الدولة العباسية، فضلًا عن معاناته الشخصية من عسف السلطة واضطهادها للمفكرين. ولذا، اختار أن يمرّر أفكاره عبر النص الرمزي الذي يتيح له مساحة من الحرية في التعبير دون أن يتورط في صدام مباشر مع السلطة, ويبرز في الحكايات رموز سياسية واضحة، مثل الأسد الذي يُمثل الحاكم، والثعلب الذي يرمز للمستشار الماكر، والثور كرمز للمواطن الصادق أو الضحية في صراع القوى. ويعكس هذا التركيب الرمزي شبكة العلاقات داخل بلاط الحاكم، وما قد يحيط به من منافقين أو ناصحين، وما يتطلبه ذلك من فطنة وحنكة في التمييز بين المخلص والمخادع. (حسين، ٢٠٢٤: ١٧٨)لكن الرمزية لم تقتصر على السياسة، بل امتدت لتشمل المجتمع ككل. فقد تناول الكتاب قضايا اجتماعية مثل الطمع، الحسد، الغدر، الوفاء، الخيانة، الحكمة، العجلة، وغيرها من الصفات التي تتكرس داخل النسيج الإنساني. وقد عالجها ابن المقفع بطريقة رمزية

تجعل القارئ يعيد تقييم ذاته ومجتمعه من خلال مواقف سردية ممتعة لكنها غنية بالمعاني, وهكذا تكون الحكاية قد حققت هدفها الفكري: إذ نقلت رسائل معقدة حول الحكم والسلطة والفضائل والرذائل من خلال صور فنية غير مباشرة، مما أكسب النصّ بعدًا فلسفيًا واجتماعيًا عميقًا، يجمع بين التوجيه والإبداع. (بركات، ١٩٩٥: ٩٧)إن الأبعاد الفكرية والتربوية في *كليلة ودمنة* تمثل جوهر المشروع الفكري لابن المقفع، الذي أراد عبره أن يسهم في بناء مجتمع عادل، قائم على الحكمة والمعرفة والفضيلة، مستخدمًا في ذلك الأدب كوسيلة فعالة لتغيير الوعي. وبهذا، فإن نصه لم يكن مجرد حكايات للتسلية، بل أداة للإصلاح والنهضة الفكرية في زمن كانت الحاجة فيه ماسّة للكلمة الحرة والذكية. (عزام، ٢٠١٧: ٢٢٠)

المبحث الثاني: الفن القصصي في نثر الجاحظ

المطلب الأول: الخصائص الأسلوبية للجاحظ

يُعد الجاحظ من أبرز أعلام النثر العربي في العصر العباسي، وقد ترك أثرًا بالغًا في تطور الأسلوب النثري الأدبي والفكري. ومن خلال كتاباته الغنية والمتنوعة، تبرز شخصيته الأدبية المتميزة في طريقة عرضه للأفكار وسرده للقصص، حيث تتداخل عناصر متعددة تشكل أسلوبه الفني والبياني، من أبرزها :**السخرية، الحوار، التكرار، والجدل**، إضافة إلى **نزعة عقلانية عميقة** تأثرت بشكل مباشر بالفكر المعتزلي الذي تبناه الجاحظ. وقد شكّلت هذه الخصائص جوهر أسلوبه القصصي، الذي تميز بحيوية الطرح، وعمق الرؤية، وجمال البيان. (الجاحظ، ٨٥٠م: ٢٤٤)

أولًا: السخرية، الحوار، التكرار، والجدل كوسائل فنية

١. **السخرية**السخرية عند الجاحظ ليست مجرد سخرية لتمرير النكتة أو التندر على العوام، بل هي أداة فكرية نافذة، يستخدمها لتفكيك المفاهيم، ونقد العادات، وتعريه السلوك الإنساني المتناقض. فهو لا يكتفي بتقرير المعلومة، بل يحمّلها بطابع تهكمي يجعل القارئ يعيد التفكير فيما كان يظنه بديهيًا. نجده يسخر من بعض مدّعي العلم، أو من المفارقات الاجتماعية، أو من النزاعات الطائفية والمذهبية، وحتى من بعض الملوك والوجهاء، لكن بطريقة لا تفضح مباشرة، بل تلمّح وتُحرّك عقل المتلقي. (الحكيم، ٢٠٠٧: ١٢٠)

٢. **الحوار**أغلب كتابات الجاحظ تتخذ شكل الحوارات الجدلية أو السرد المتقاطع بين الأصوات. هذه التقنية تمنح نصوصه حيويةً وتفاعلية، وتُقرب القارئ من القضايا المطروحة. ففي كتاباته لا نجد صوتًا واحدًا يقرر الحقيقة، بل تتعدد الأصوات، وتُعرض الحجج والحجج المضادة، مما يمنح القارئ مساحة للتمعّن والحكم. وهذا الأسلوب لا يخدم الجانب الفني فحسب، بل يعكس فلسفة الجاحظ القائمة على احترام الرأي والرأي الآخر، ويكشف تأثره العميق بالمنهج الكلامي في عرض الأفكار. (هلسا، ٢٠١٨: ٢٤٥)

٣. **التكرار**رغم أن التكرار قد يُعد من سمات الضعف عند بعض الأدباء، إلا أن الجاحظ يوظفه بذكاء فني، فيجعله أداة للتأكيد والتثبيت، وليس للحشو. يعيد الفكرة بأساليب مختلفة، أو يعيد المثال بصياغات متدرجة، مما يمنح النص إيقاعًا خاصًا، ويُسهم في ترسيخ المعنى لدى المتلقي، خصوصًا في الموضوعات الجدلية أو الأخلاقية. (الحكيم، ٢٠٢٣: ١٨)

٤. **الجدل**الجدل عند الجاحظ ليس مجرد عرض للآراء المتناقضة، بل هو بناء منطقي محكم، قائم على تفكيك الحجة وإعادة تركيبها، بأسلوب جدلي معتزلي بارع. وقد أتقن فن المناظرة، ونراه يُقيم الدليل ويدحض الحجة، ثم يُسلم بها ظاهرًا ليُناقضها ضمنًا، ويُغلف ذلك أحيانًا بالسخرية المبطنة. وهذا الجدل يُوظف في قصصه ضمن بنية السرد لا كإقحام، بل كجزء أصيل من البنية الفنية. (كوثراني، ٢٠١٢: ٣٠١)

ثانيًا: النزعة العقلانية والفكر المعتزلي في نثر الجاحظ

ارتبط الجاحظ فكريًا بمذهب المعتزلة، وهو تيار فكري عقلاني ظهر في بدايات العصر العباسي، يدعو إلى استخدام العقل في تفسير العقائد، وإعلاء شأن الحرية والعدل الإلهي. وقد انعكست هذه النزعة بوضوح في أسلوبه القصصي، الذي يتميز بحب البحث، وتقديم الأدلة، ومساءلة المُسلّمات. (ياسين، ٢٠٢٢: ١٥٠)إن الجاحظ لا يطرح الفكرة بوصفها نهائية، بل يعرضها ويُحاكمها، ويدعو القارئ إلى مشاركته في هذه المحاكمة العقلية. القصة عنده ليست مجرد رواية حدث، بل هي **تمرين ذهني**، وأداة تحليل. نجده في "البيان والتبيين" و"الحيوان" يقدّم شخصيات رمزية أو حكايات شعبية، لكنها تتضمّن نقاشات عقلية حول طبائع الإنسان، علاقة المخلوق بالخالق، الغريزة والعقل، الغنى والفقر، السخاء والبخل، وغيرها من الثنائيات الفكرية والاجتماعية, وهذا النهج يتجلى أيضًا في دفاعه عن قضايا تمس الواقع: كدفاعه عن العرب، أو رأيه في الشعوبية، أو مقارناته بين الطوائف والفرق، وكلها تُبنى على أساس منطقي، لا على التعصب أو التقليد. (عبود، ٢٠٢٥: ٣٣)كما أن الجاحظ ينتمي إلى مدرسة *النقد من الداخل*، فهو لا يهدم الفكرة بل يختبرها، ولا يسخر من الطرف المخالف، بل يُقيم حوارًا معه، ويوظف القص لتقديم هذا الجدل العقلي بأسلوب فني جذاب. ولذلك، نجد في قصصه وأمثاله ومقالاته ميلًا مستمرًا إلى **إعمال الفكر لا الانفعال**، ورفضًا للتسليم الأعمى بالمسلمات, وتتجلى الخصائص الأسلوبية للجاحظ في قدرته الفائقة على الدمج بين التسلية والعقل، وبين الطرافة والجدل، وبين القص والدليل. لقد جعل من السخرية أداة لنقد الواقع،

ومن الحوار وسيلة لتوليد المعنى، ومن الجدل منهجًا لفهم العالم، ومن القصة مجالًا لتطبيق الفلسفة المعتزلية بصورة أدبية. وهكذا تميز أسلوبه القصصي بخصوصية قلّ نظيرها، وظلّ حتى اليوم نموذجًا لفن نثري رفيع يجمع بين الجمال والفكر. (حمدان، ٢٠٢٣: ١٩٨)

المطلب الثاني :تحليل قصصي لنماذج مختارة من "البيان والتبيين" و"البخلاء"

يُعد كتاب "**البخلاء** "واحدًا من أعظم الأعمال السردية في التراث العربي، بل إنه نموذج فريد لفن القص المبني على الرصد الاجتماعي والتشريح النفسي. وهو في جوهره ليس كتابًا في ذمّ البخل فقط، بل هو مرآة دقيقة لمجتمع البصرة وبغداد في العصر العباسي، يقدّم شخصيات نابضة بالحياة، مرسومة بريشة أديب ساخر وفيلسوف عقلاني. إلى جانبه، يُمثل "**البيان والتبيين** "معلمًا بلاغيًا ولغويًا يتضمّن بدوره سرديات ذات طابع أدبي، تكشف عن وعي الجاحظ ببلاغة الحكي، وبقدرة القصة على حمل الفكرة وتوصيلها بشكل مؤثر. (الأسدي، ٢٠٠٢: ١١٣)

أولًا: البناء السردي في حكايات "البخلاء"البناء القصصي في "البخلاء" يتجاوز السرد الخطي التقليدي. يتبع الجاحظ أسلوبًا يقوم على المقابلة والجدل، حيث تبدأ القصة غالبًا بموقف واقعي أو طرفة، ومن ثم يتفرع منها الحوار والجدال، ويسترسل الراوي في كشف الخلفيات النفسية والاجتماعية للشخصية. (فرج، ٢٠٢٠: ١٧٨)تعتمد كل حكاية على موقف واحد بسيط – كدعوة لطعام، أو زلة لسان، أو مفاوضة على درهم – لكن الجاحظ يُحوّل هذا الموقف إلى فضاء خصب للتحليل والكشف، ويُغلفه بإطار ساخر، لا يخلو من التعاطف أحيانًا, وكما يُلاحظ أن الجاحظ لا يُلزم نفسه بوحدة الزمان أو المكان أو الحدث؛ بل يترك للسرد أن يتشعب تبعًا لفكرة مركزية، وغالبًا ما يُقاطع الحكاية بأمثال أو نوادر مشابهة، فيخلق بذلك بناءًا فسيفسائيًا يثري النص ولا يشتته. هذه المرونة في البناء تمثل نقلة نوعية في القص العربي، وتُضفي على العمل طابعًا شبه حداثي. (حسن، ٢٠٢١: ٦١)

ثانيًا: توظيف الشخصيات الواقعية وأنماط السلوك البشريمن أبرز ما يُميز الجاحظ في "البخلاء" و"البيان والتبيين" هو اختياره لشخصيات من صميم الواقع: بقال، نحوي، طبيب، معلم، شيخ، مريض، فقيه، وغيرهم من أفراد المجتمع العباسي. هذه الشخصيات ليست رمزية أو بطولية، بل عادية، لكنها مرسومة بتفاصيل دقيقة في المظهر والكلام والسلوك، ما يجعلها نابضة بالحياة, ولقد نجح الجاحظ في تصوير **نمط البخيل** لا كعيب فردي فحسب، بل كظاهرة اجتماعية تتقاطع فيها الثقافة والمعتقد والاقتصاد. فالبخل عنده ليس مجرد حرص على المال، بل هو فلسفة عيش، تُعبّر عنها اللغة والملبس والحركة، وحتى في ردود الفعل على أبسط المواقف. (يوسف، ٢٠١٨: ١٠١)الجاحظ لا يجرّم البخلاء، بل يُقدّمهم أحيانًا بوصفهم حكماء أو مفكرين أو حريصين على النظام. ومن هنا تأتي عبقريته في توظيف الشخصية الواقعية، فهي لا تخدم الوظيفة الكاريكاتورية فقط، بل تثير التفكير في ما وراء السلوك, وأما في "البيان والتبيين"، فإن الشخصيات تُوظّف غالبًا في سياق بلاغي أو تعبيري، لكنها رغم ذلك تخرج من الحيز النظري إلى الحيز الحيّ من خلال الحكاية. فمثلاً، حين يُورد قصة أحد الأعراب في معرض حديثه عن الفصاحة، نجده يرسم الشخصية بمفارقاتها وانفعالاتها، مما يحوّل النص إلى سرد ممتع. (عبد الله، ٢٠١٧: ٢٤٤)

ثالثًا: السمات الفكاهية والفنية في العرض القصصي الفكاهة عند الجاحظ ليست مجرد زينة للنص، بل هي عنصر بنائي أصيل في سرديته. وهي تأتي من التهكم، من التناقض بين القول والفعل، من المبالغة المقصودة، ومن تصوير التفاصيل المضحكة في السلوك البشري. ومن النادر أن تجد قصة في "البخلاء" لا تثير الضحك – ضحكًا تأمليًا لا سطحيًا – لأنها تكشف جانبًا خفيًا في النفس أو في المجتمع. (علي، ٢٠١٥: ٥٥)ويُلاحظ أن الجاحظ يُتقن **فنيات السرد** بأسلوب سبق عصره؛ فيستخدم التكرار لا للإملال، بل للإمتاع، ويُدخل الحوار كعنصر تفاعلي، ويُغيّر الإيقاع تبعًا للحالة النفسية أو الدرامية. كما أنه يُجيد رسم **النهاية المفتوحة**، فلا تنتهي القصة غالبًا بحل أو خلاص، بل تُترك القارئ في حالة من التأمل والسؤال, وإن تركيب الجاحظ الفني يقوم على مزج بين **الفكاهة والجدل**، وبين **التفاصيل الواقعية والتأملات الفكرية**، وبين **المعرفة واللعب اللغوي**، مما يجعل أعماله تُقرأ على مستويات عدة: سطحية تضحك، وعميقة تُفكر، وأسلوبية تُبهر. (الدهان، ١٩٦١: ١٣٤)يتجلّى في تحليل قصص الجاحظ عمق التجربة الأدبية لديه، فهو لا يروي لمجرد الترفيه، بل يسرد ليُحلّل، ويضحك ليُفكّر، ويرسم الشخصيات ليُصوّر طبائع البشر وسلوكهم في مواقف الحياة اليومية. وتُعد "البخلاء" و"البيان والتبيين" شاهدين على قدرته الفذة في تحويل الحكاية إلى أداة معرفية وفنية، تجمع بين العبقرية اللغوية والحس الفلسفي والاجتماعي، مما يجعل فنه القصصي علامة فارقة في تاريخ الأدب العربي. (كمال، ٢٠١٠: ٢٢١)

المطلب الثالث: الوظيفة السردية في خدمة الفكر

لقد كان الجاحظ مفكرًا كبيرًا لا يقل عمقًا عن كونه أديبًا ساخرًا، وامتاز بنظرته الشمولية التي جمعت بين متعة الحكي ورصانة الفكر. ومن خلال أعماله – وخصوصًا *البخلاء* و*البيان والتبيين* –استطاع أن يجعل من الفن القصصي أداةً فعّالة لتوصيل أفكاره، وتمرير آرائه حول الإنسان والمجتمع والعقل والدين والسلوك. (ابن المقفع، ٧٥٠م: ٨٧)

أولًا: القصة بوصفها أداة فكريةإذا تأملنا قصص الجاحظ، نلاحظ أنها لم تكن تهدف إلى السرد لمجرد السرد، بل كانت تحوي داخلها **مشروعًا معرفيًا** يسعى إلى تفكيك الواقع وتحليله وإعادة النظر فيه. فالجاحظ كان معنيًا باستخدام الأدب كوسيلة لتوجيه الوعي الجمعي نحو النقد، والتفكر، والاعتدال، والانفتاح العقلي. وقد كانت القصة، بما تمتلكه من طابع ترفيهي ومرونة في التناول، أداةً ذكية لنقل هذه الرسائل الفكرية بأسلوب جذّاب بعيد عن الجفاف التنظيري. (الجاحظ، ٨٥٠م: ٣٠٦)ونجد هذا بوضوح في كتاب *"البخلاء"*؛ فهو ليس كتابًا في وصف البخل فقط، بل كتاب في كشف ميكانيزمات النفس البشرية، وتحليل أنماط التفكير، وتشريح العقلية الطبقية والاجتماعية. وقد استخدم فيه الجاحظ الفن القصصي لتقريب هذه المفاهيم من القارئ من خلال حكايات واقعية وساخرة وذكية، تعكس صورة المجتمع العباسي ومشكلاته الثقافية. (الجاحظ، ٨٥٠م: ٣٠٦)

ثانيًا: المزج بين الحكاية والخطاب العقلي تميز الجاحظ بنزعته المعتزلية، التي تقوم على **العقل والمنطق والتفسير العلمي للكون**، لكنه كان واعيًا بأن هذه النزعة قد تنفّر القارئ العام إذا قُدمت بشكل فلسفي جاف. لذا نجده يميل إلى تقديم أفكاره في قوالب قصصية حيوية، تُخفي الفلسفة في طياتها، دون أن تفقد روح الدعابة أو الطابع الشعبي, وفعلى سبيل المثال، حين ينتقد الجاحظ الإسراف أو الجهل أو الخرافة، لا يطرحها كمقولات وعظية، بل يجسدها في سلوك شخصياته، ويجعل القارئ يضحك من عبثها، ثم يُدرك – من خلال التهكم – أن ثمة رسالة عميقة تُبثّ ضمنيًا في النص. (ابن قتيبة، القرن الثالث الهجري: ١٤١)في *"البيان والتبيين"*، وهو عمل بلاغي وفلسفي، نلاحظ أنه لم يغفل عنصر الحكاية، بل أغناه بالأمثلة والنوادر التي تخدم الفكر. إن هذه النوادر لم تكن للتسلية فقط، بل كانت بمثابة "نماذج مصغرة" تُظهر كيف يمكن للبيان – أي الكلمة المؤثرة – أن تكون أداة للنفوذ والتأثير، وتبرهن على مركزية اللغة في تشكيل الوعي. (بدوي، ١٩٨٠: ٩٣)

ثالثًا: القصة كأداة للإصلاح الاجتماعي لم يكن الجاحظ مفكرًا في برج عاجي، بل كان مثقفًا متفاعلًا مع مجتمعه، يكتب من داخله ولأجله. والقصة كانت أداته الأساسية في تشخيص العلل الاجتماعية، من جهل، وغرور، وتعصب، ومادية. ففي كل قصة من قصص *"البخلاء"*، مثلًا، نكتشف "نموذجًا بشريًا" مشوّهًا، يعكس سلوكًا مجتمعيًا شائعًا. وقد لا يُدين الجاحظ هذا السلوك مباشرة، لكنه يُظهره في أقبح صوره، ويجعل القارئ يضحك من مفارقاته، ثم يُدرك – ضمنيًا – ضرورة تغييره, والقصة، إذن، ليست مرآة فقط بل أداة تغيير. فهي تعمل كـ"خطاب بديل" للخطابات الرسمية أو الوعظية، حيث تقدم النقد في ثوبٍ ظريف، وتسهم في زحزحة المفاهيم السائدة دون أن تصطدم بالجمهور أو تُنفّره. (الجابري، ٢٠٠٦: ٣١٧)

رابعًا: تداخل السرد مع الفلسفة واللغة كان الجاحظ مؤمنًا أن البلاغة لا تقتصر على حسن العبارة، بل على **قدرتها في التأثير والإقناع وتشكيل الفكر** .لذلك استخدم القصة في كتبه لتقديم أمثلة حية على قوة الكلمة. فكل حكاية عنده هي نموذج بلاغي، وفكرة مُجسّدة، وموقف لغوي يُظهر عمق البيان وقدرته في التعبير عن أدق المعاني, وإن القصة في أدب الجاحظ هي وحدة معرفية متكاملة، تمزج بين المتعة الجمالية والقيمة الفلسفية، وتُقدّم تصورًا متكاملًا للعالم، لا يخلو من العقل، ولا يخلو من خيال. (النجار، ١٩٨٨: ٥٨)

خامسًا: التأثير المتبادل بين الفن والفكرلقد جعل الجاحظ من القصة فضاءً يتداخل فيه *الفني والفلسفي*، *الساخر والجدي*، *العلمي والعامي* .فكان يمزج بين لغة الحياة اليومية، ومفاهيم الفكر العميقة، بحيث يصل للقارئ العادي والمثقف معًا. وهذه سمة نادرة، قلّ أن تتوافر في كاتب غيره, واستطاع من خلال هذا التداخل أن يُعيد تعريف وظيفة الأدب، ليجعل منه أداة لفهم الإنسان لا لتسليته فقط، ولتحرير العقل لا فقط لإثارة الضحك, وإن الفن القصصي عند الجاحظ هو أداة فكرية، ووسيلة إصلاحية، ومنبر ثقافي، وظّفه بشكل عبقري في خدمة مشروعه الفكري المعتزلي والاجتماعي الواقعي. وقد نجح في جعل القصة جسراً يصل بين العقل والجمهور، بين النقد والفن، بين الفكرة والحدث. وبهذا الشكل، أسّس الجاحظ لنموذج من الأدب العربي الذي لا يزال حيًّا حتى اليوم، حيث تُصبح الحكاية ليست وسيلة للهروب من الواقع،بل وسيلة لفهمه، وتغييره. (ضيف، ٢٠٠٠: ٢١١)

المبحث الثالث: دراسة مقارنة بين الجاحظ وابن المقفع

المطلب الأول: أوجه التشابه بين الجاحظ وابن المقفع

عند النظر في نتاج الجاحظ وابن المقفع، نجد أن بينهما قواسم فكرية وفنية مشتركة تجعل المقارنة بينهما غنية وذات دلالات عميقة، خاصة في مجالات التوظيف الرمزي، والمقاصد الأخلاقية، والتنوع السردي. وعلى الرغم من اختلاف خلفياتهما الفكرية والثقافية إلى حدٍّ ما، فإن كليهما كان يحمل مشروعًا فكريًا وأدبيًا يتجاوز حدود الكتابة الترفيهية إلى مساحة التربية والتوجيه والإصلاح الاجتماعي. (حسين، ٢٠٢٤: ٣٩)

أولاً: التوظيف الرمزي كلا الكاتبين لجأ إلى استخدام الرمز والأسلوب غير المباشر في إيصال رسائلهما الفكرية والأخلاقية. فنجد عند **ابن المقفع**، في كتابه "كليلة ودمنة"، استخدامًا واضحًا للرمز من خلال الحيوانات التي تمثل شخصيات بشرية، وهو بذلك يقترب من أسلوب الحكايات الرمزية الهندية التي تهدف إلى تعليم الحاكم والرعية عن طريق القصص ذات المغزى. فالأسد، والثور، والذئب، وغيرها، تمثل أنماطًا بشرية وسلطوية، وتناقش قضايا الحكم والخيانة والنصيحة والعدالة بطريقة غير مباشرة. (عزام، ٢٠١٧: ١٦٦)أما **الجاحظ**، فرغم أنه لم يعتمد في أغلب كتاباته على

الحيوانات كشخصيات رمزية، إلا أنه استخدم الرمز والتلميح بكثافة في معالجة قضايا المجتمع والدين والسياسة، خصوصًا في كتابه "البيان والتبيين" و"الحيوان". في كتاب "الحيوان"، مثلاً، نجد استخدامًا مشابهًا لفكرة الرمز من خلال ملاحظاته على عالم الحيوان، حيث يعكس طبائع الإنسان، ويعرض مواقفه وسلوكياته الاجتماعية والنفسية. وتأتي هذه الرمزية في إطار فلسفي وتأملي يعكس عمق نظر الجاحظ وتحليله لما وراء الظواهر. (عبود، ٢٠٢١: ٧٣)

ثانيًا: المقاصد الأخلاقية تشكل الأخلاق عمقًا محوريًا في كتابات الجاحظ وابن المقفع. فكلاهما لم يكن يكتب لمجرد الإمتاع أو العرض البلاغي، بل كان يسعى لبناء منظومة قيمية لدى القارئ، تتسم بالحكمة والاعتدال والسلوك القويم .**ابن المقفع**، المتأثر بالحكمة الفارسية والهندية، كان ينقل تلك المعارف في صورة أدبية أخلاقية تهدف إلى تهذيب النفس وتوجيه السلوك، لا سيما في "الأدب الصغير" و"الأدب الكبير"، حيث نجد إرشادات أخلاقية متعلقة بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين الإنسان ونفسه. (هيكل، ٢٠٢٥: ١٢١)**الجاحظ**، من جانبه، كان يسير في نفس الاتجاه ولكن من منظور أوسع وأكثر تنوعًا. فقد تناول الأخلاق من خلال أسلوب جدلي وتحليلي ساخر في كثير من الأحيان، محاولًا نقد السلوكيات الفاسدة وتسليط الضوء على ما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم من قيم إنسانية رفيعة، مثل الصدق، والكرم، والعدل، والعقلانية. وقد ظهرت هذه المقاصد في كتاباته التي كانت تبدو في ظاهرها علمية أو لغوية أو بيانية، لكنها تحمل رسائل خفية ذات أبعاد أخلاقية. (البشري، ٢٠٢٤: ١٩٠)

ثالثًا: التنوع السردي اتسمت كتابات الجاحظ وابن المقفع بتنوع سردي واضح، يعكس غنى ثقافيًا وفنيًا قل نظيره في العصر العباسي .**ابن المقفع** استخدم أسلوب الحكاية داخل الحكاية، والتضمين القصصي، والحوارات الجدلية، مما جعل نصوصه مرنة وقابلة للتأويل والتعدد. هذا الأسلوب منح كتاباته طابعًا تعليميًا غير مباشر، حيث يتلقى القارئ الحكمة دون شعور بالإملاء أو الوعظ الفج. (أباظة، ٢٠٢٢: ٤٤)أما **الجاحظ**، فكان أكثر تنوعًا من حيث الأسلوب، إذ زاوج بين السرد القصصي، والمقالة التحليلية، والنقد، والخطابة، والحوار الفلسفي. وكان يميل إلى التفصيل والتوسّع، ويستخدم الفكاهة، والتكرار، والمفارقة، لتقريب الفكرة وترسيخها في ذهن القارئ. وكان من المبدعين في تطويع اللغة لخدمة المحتوى، فجعل من السرد أداة لفهم الإنسان والطبيعة والمجتمع. (كوثراني، ٢٠١٢: ١٣٢)

المطلب الثاني: أوجه الاختلاف بين الجاحظ وابن المقفع

رغم أوجه التشابه الكثيرة بين الجاحظ وابن المقفع، فإن الفروق بينهما لا تقل أهمية، بل تسهم في إبراز خصوصية كل منهما في الفكر والأسلوب والاتجاه الثقافي. فبينما يشتركان في الأهداف الأخلاقية والتربوية، يختلفان في المنطلقات الفلسفية، والخلفيات الثقافية، والأساليب التعبيرية، وطرق معالجة الموضوعات. ويمكن حصر أبرز أوجه الاختلاف بينهما في النقاط الآتية: (الحكيم، ٢٠٠٧: ١٥٤)

أولاً: الخلفية الثقافية والفكرية ينتمي **ابن المقفع** إلى بيئة فارسية الأصل، وقد تأثر بالفكر الفارسي والهندي إلى حدٍّ كبير، خاصة من خلال ترجماته لنصوص الأدب الساساني والهندي إلى العربية، مثل "كليلة ودمنة" و"الأدب الكبير والصغير". لذلك، فإن نظرته للإنسان والحياة مشبعة بروح الحكمة الشرقية القديمة التي تميل إلى التأمل، والتوجيه الأخلاقي الفردي، والاهتمام ببناء الإنسان الداخلي والسلطة المثالية. كانت كتاباته تحمل صبغة عقلانية محافظة، ذات طابع أخلاقي صريح، وتهدف إلى تهذيب النفس وتربية الحاكم والمحكوم. (الحكيم، ٢٠٢٣: ٢٠٣)أما **الجاحظ**، فهو ابن البيئة العربية الإسلامية، وقد تشرّب الثقافة الإسلامية والقرآنية، وتأثر كثيرًا بالفكر المعتزلي الذي ينتمي إليه، وهو تيار فكري عقلاني يركّز على حرية الإرادة، والعدالة الإلهية، والعقل كمصدر للفهم. كانت كتاباته تعكس روح الجدل الكلامي، والانفتاح على مختلف الآراء، والقدرة على المزج بين الدين والفلسفة، والأدب والعلم، بشكل واسع. كما اتسم فكره بالمرونة والسخرية، واحتضان التعددية الفكرية. (هلسا، ٢٠١٨: ٨٩)

ثانيًا: الأسلوب الأدبي يميل **ابن المقفع** إلى الإيجاز والرصانة، ويختار عباراته بدقة وعناية. أسلوبه يتسم بالوضوح، والتركيز، والانضباط في التراكيب. يعتمد غالبًا على السجع المتوازن، والجمل القصيرة التي تحمل معاني عميقة. نصوصه تميل إلى الطابع التعليمي والمباشر، خاصة في مؤلفاته ذات الطابع التوجيهي الأخلاقي والسياسي. (حمدان، ٢٠٢٣: ٩٩)أما **الجاحظ**، فيتميّز بأسلوب مطوّل، غني بالاستطراد والمقارنات، ويعتمد على الإقناع بالحجة والبرهان والجدل. يستخدم الفكاهة، والمفارقة، والمبالغة أحيانًا، ويطيل النفس في السرد والتحليل. لغته أكثر حيوية وتدفقًا، وقد لا يكون همه دائمًا الإيجاز، بل إيصال المعنى من خلال تعدد الزوايا. أسلوبه يحمل قدرًا كبيرًا من الحرية الأدبية التي تعكس روحه المرحة، وقدرته على التلاعب بالأفكار والألفاظ. (عبود، ٢٠٢٥: ٦٧)

ثالثًا: الموضوعات والاهتمامات

ركّز **ابن المقفع** في معظم كتاباته على القضايا السياسية والأخلاقية المرتبطة بالحاكم والمجتمع، وكان اهتمامه منصبًا على تقديم العِبَر والنصائح من خلال القصص الرمزية. لم تكن كتاباته تنطلق من موقف نقدي اجتماعي مباشر، بقدر ما كانت تهدف إلى التربية الهادئة، ونقل الحكمة الشرقية

بأسلوب عربي. (الأسدي، ٢٠٠٢: ١٣٥)أما **الجاحظ**، فقد تنوعت موضوعاته وتجاوزت حدود السياسة والأخلاق إلى مجالات العلوم، والبلاغة، وعلم الحيوان، والتاريخ، والدين، والمجتمع. كانت لديه نظرة موسوعية، واهتمام بطرح الأسئلة الكبرى، مثل علاقة الإنسان بالحيوان، والعقل بالنقل، واللغة بالفكر. كما لم يتردد في نقد الأعراف والتقاليد، وتقديم رؤى غير مألوفة أحيانًا، مما جعله أكثر انفتاحًا من ابن المقفع. (ياسين، ٢٠٢٢: ٥٨)

رابعًا: التفاعل مع الواقع الاجتماعي والسياسيعاش **ابن المقفع** في عصر سياسي مضطرب، وكان مقرّبًا من السلطة العباسية في بداياتها، لكنه انتهى نهاية مأساوية بسبب آرائه ونصائحه الجريئة التي لم تلقَ قبولًا من بعض القادة. لذلك، فإن تعبيره كان يحمل نوعًا من الحذر السياسي، واختار أن يخاطب القارئ بصيغة غير مباشرة عبر الرموز. (فرج، ٢٠٢٠: ١٩٤)أما **الجاحظ**، فقد كان أكثر حرية في التعبير، خاصة في ظل مناخ نسبي من الانفتاح الفكري الذي ساد في عصره. وكان قادرًا على انتقاد الفقهاء، والعوام، والمجتمع، وحتى الخلفاء أحيانًا، بأسلوب ساخر لا يخلو من ذكاء، وهو ما جعل أعماله أداة فكرية لتحريك الجمود، وتحفيز العقل. (حسن، ٢٠٢١: ٦٧)

المطلب الثالث: التطور الفني في القصة النثرية

شهدت القصة النثرية في الأدب العربي القديم، وخاصة في العصر العباسي، تطورًا فنيًا ملحوظًا انتقل بها من كونها مجرد وسيلة تعليمية رمزية إلى أن أصبحت بناءً أدبيًا مستقلاً يمتلك مقومات الجمال والتأثير الفني. وقد لعب كل من **ابن المقفع** و**الجاحظ** دورًا مركزيًا في هذا التحول، كلٌّ بطريقته وأسلوبه. ويمكن تتبّع هذا التطور من خلال المحاور التالية: (يوسف، ٢٠١٨: ١٤٩)

أولًا: من الرمزية التعليمية إلى السرد الإبداعي في المراحل الأولى، وخاصة في أعمال **ابن المقفع**، كانت القصة النثرية أداة توجيهية ذات وظيفة تربوية وأخلاقية صريحة. ففي كتابه "كليلة ودمنة"، نجد قصصًا رمزية على ألسنة الحيوانات، تمثّل نماذج سلوكية، وتقدّم دروسًا أخلاقية، وحكمًا عملية تستهدف تهذيب الحاكم وتوجيه المجتمع. كانت القصص آنذاك تقوم على البناء الرمزي، وتقدّم مغزاها بشكل غير مباشر لحماية الكاتب من الرقابة أو البطش السياسي، ولكن هذا البناء ظلّ مرتبطًا بهدف تعليمي واضح, ومع مرور الزمن، بدأ السرد يتخلص تدريجيًا من هذه الوظيفة الأحادية، ليكتسب عناصر فنية جمالية، مثل تنويع الشخصيات، وتعقيد الحبكة، وتعدد مستويات المعنى، وهي خطوات ظهرت بوضوح في كتابات **الجاحظ** الذي لم يكن يهدف فقط إلى التهذيب، بل إلى **التأمل، والتساؤل، والإقناع، والمتعة الفكرية.** (عبد الله، ٢٠١٧: ٢٠١)

ثانيًا: تنوع الأساليب وثراء اللغة اعتمد **ابن المقفع** أسلوبًا جادًا ومتزنًا، يخلو من الزخرفة اللغوية الزائدة، لكنه كان شديد الترابط والاتساق. أما **الجاحظ**، فقد منح القصة مرونة أكبر في الشكل، واستخدم لغة أكثر تنوعًا، جمعت بين السرد، والوصف، والحوار، والجدل، وحتى الفكاهة. وبهذا، فقد ساعد في تحرير القصة النثرية من الجمود البنيوي الذي فرضته الوظيفة التعليمية، وفتح المجال أمام تطور السرد باتجاه فني أرحب, ولقد جعل الجاحظ القارئ شريكًا في التجربة، يتفاعل مع النص، ويندمج مع الشخصيات والأحداث. كما استخدم تقنيات مثل **التكرار الساخر، والمفارقة، والتناص، والتعليق المباشر**، وهي عناصر أساسية في بناء القصة الحديثة. (علي، ٢٠١٥: ١٦٠)

ثالثًا: تنامي الوعي بالشخصية والحدث في القصص الرمزية مثل "كليلة ودمنة"، تكون الشخصيات رموزًا مجرّدة تمثل صفات أخلاقية أو فئات اجتماعية، ولا تتطوّر نفسيًا أو ذاتيًا. أما في الأعمال السردية المتقدمة مثل قصص الجاحظ، فتبدأ الشخصيات تكتسب أبعادًا أكثر إنسانية، ويظهر لديها **تردد، وصراع، وخوف، وطموح**، وهو ما يدلّ على تنامي الوعي بأهمية البعد الداخلي للشخصية, وكما أن **الحدث** تطوّر من كونه مجرد وسيلة لإيصال مغزى أخلاقي، إلى كونه عنصرًا ديناميكيًا يحرّك الشخصيات ويدفعها نحو مواقف جديدة، مما يعزز عنصر التشويق، ويمنح القصة طابعًا دراميًا أقوى. (بركات، ١٩٩٥: ٢٤٨)

رابعًا: استقلالية النص القصصي في البدايات، كانت القصة جزءًا من خطاب فلسفي أو تربوي أو ديني. أما في مرحلة التطور التي يمثلها الجاحظ وبعض من جاء بعده، فقد بدأت القصة تتبلور كفن له استقلاليته النسبية، من حيث البنية، والأسلوب، والتقنيات. وأصبح بالإمكان قراءة القصة والاستمتاع بها كعمل أدبي، لا فقط كوسيلة إيضاح لموعظة أو فكرة, وهذا التطور يُعدّ خطوة تمهيدية مهمة لما عرف لاحقًا بالقصة القصيرة الحديثة في الأدب العربي، والتي تقوم على حبكة محكمة، وشخصيات مركّبة، وهدف جمالي أو فلسفي، وليس فقط أخلاقيًا أو سياسيًا. (الدهان، ١٩٦١:٨٣)

خامسًا: نحو وعي فني بالسرد

لقد كشف تطور القصة النثرية عن نشوء **وعي فني بالسرد** لدى الكتاب العرب، حيث بدأوا يعون أهمية البناء، والتسلسل، والحوار، والتشويق، والنهاية المفاجئة أو المفتوحة، وغيرها من العناصر الفنية. فالجاحظ، على سبيل المثال، في كتاب "البخلاء"، لم يقدّم مواعظ تقليدية، بل صورًا نابضة من الواقع بأسلوب قصصي يمزج بين **الوصف، والتحليل، والمرح، والنقد الاجتماعي**, وهذا الانتقال من الإخبار الرمزي إلى **التمثيل الفني،**

يُعدّ منعطفًا حاسمًا في مسار القصة العربية، حيث خرجت من حيز التلقين إلى فضاء الإبداع والتجريب، واستطاعت أن تؤسس لتقاليد سردية ما تزال تؤثر في القصة العربية الحديثة حتى اليوم. (كمال، ٢٠١٠: ٢٣٨)

النتائج والتوصيات

أولًا: أهم النتائج

١. أظهر التحليل وجود عدد من السمات الفنية المشتركة بين الجاحظ وابن المقفع، كالتوظيف الرمزي، والبعد الأخلاقي، وتنوع البناء السردي، مع اختلاف واضح في المعالجة والأسلوب. فقد مال ابن المقفع إلى الأسلوب الرمزي التعليمي القائم على الاستعارة والتمثيل، بينما اتجه الجاحظ نحو الواقعية الساخرة، مع منح القصة مرونة فكرية وجمالية أوسع. كما تبيّن أن ابن المقفع اعتمد على البنية الحكائية ذات الغاية المباشرة، بينما طوّر الجاحظ أسلوبًا قائمًا على تعدد الأصوات والسخرية الاجتماعية.

٢. لعب السياقان الثقافي والسياسي دورًا حاسمًا في توجيه طبيعة الكتابة القصصية. فابن المقفع، الذي عاش في ظل السلطة الأموية والعباسية، لجأ إلى الرمز والتورية هربًا من الرقابة، بينما سمحت الجاحظ بيئته الفكرية في البصرة والاعتزال بالتعبير المباشر والنقد الاجتماعي. هذا التفاوت السياقي انعكس بشكل مباشر على بنية القصة وغاياتها وأدواتها السردية.

ثانيًا: التوصيات

١. يُوصى الباحثون بإعادة قراءة تراث النثر العربي، وخصوصًا نصوص الجاحظ وابن المقفع، برؤية سردية معاصرة تستفيد من أدوات النقد الحديث كالسيميائيات وتحليل الخطاب وبنية الحبكة، بما يُسهم في كشف عمق البنية السردية فيها، ويعزز موقعها في تطور الأدب العربي.

٢. يُقترح إجراء دراسات مقارنة تُعنى بتتبّع الأثر السردي لهذين الكاتبين في أنماط نثرية لاحقة، كالمقامات، والرسائل الأدبية، والنثر الفني في العصور المملوكية والعثمانية، مع التركيز على عناصر مثل بنية الحكاية، وتعدد الأصوات، والمفارقة، واستمرار الرمزية الأخلاقية.

المصادر والمراجع

أولا: قائمة المصادر باللغة العربية:

١. أباظة، ثروة .خواطر ثروت أباظة .دار الهلال.**2022** .

٢. ابن المقفع .كليلة ودمنة .تحقيق عبد الوهاب عزام. دار الهلال**750** .م.

٣. ابن قتيبة .عيون الأخبار .دار الكتب العلمية .**القرن الثالث الهجري**.

٤. الأسدي، عبد الأمير .الفن القصصي عند ابن المقفع .جامعة بغداد – أطروحة ماجستير.**2002** .

٥. بدوي، عبد الرحمن .موسوعة المستشرقين .المؤسسة العربية للدراسات.**1980** .

٦. بركات، علي .فن القصة في الأدب العباسي .دار الفكر العربي.**1995** .

٧. البشري، عبدالعزيز .المختار .مكتبة الأسرة.**2024** .

٨. الجابري، محمد عابد .بنية العقل العربي .مركز دراسات الوحدة العربية.**2006** .

٩. الجاحظ .البيان والتبيين .دار صادر**850** .م.

١٠. حسن، هدى .تجليات القص في أدب الجاحظ .دار نينوى.**2021** .

١١. حسين، طه .حديث الأربعاء – الجزء الثاني .دار المعارف.**2024** .

١٢. الحكيم، توفيق .فن الأدب .الهيئة المصرية العامة للكتاب.**2023** .

١٣. الحكيم، توفيق .ملامح داخلية: سيرة ذاتية .دار الشروق.**2007** .

١٤. حمدان، منى .التمثيل الرمزي في نثر الجاحظ .مجلة الموقف الأدبي، العدد ١٥٦.**2023** .

١٥. سامي الدهان .فن القص في الأدب العربي القديم .دار النهضة العربية.**1961** .

١٦. شوقي ضيف .الفن ومذاهبه في الشعر العربي .دار المعارف.**2000** .

١٧. عبد الله، محمد .بنية السرد في الأدب العباسي .دار المنهل.**2017** .

١٨. عبود، مارون .جدد وقدماء: دراسات ونقد ومناقشات .دار النهار.**2025** .

١٩. عبود، مارون .في المختبر: تحليل ونقد لآثار الكتّاب المعاصرين .دار نوفل.**2021** .

٢٠. عزام، عبد الوهاب .الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والإسلام .الهيئة المصرية للكتاب.**2017** .

٢١. علي، حسين .دراسة تحليلية لرسائل الجاحظ .دار الرافدين.**2015** .

٢٢. فرج، عبد الحميد .الأسلوب القصصي في التراث النثري العربي .دار الفكر العربي.**2020** .

٢٣. كمال، عبد السلام .تحولات الفن القصصي في التراث العربي .دار الفكر.**2010** .

٢٤. كوثراني، وجيه .تاريخ التأريخ: اتجاهات، مدارس، مناهج .المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.**2012** .

٢٥. النجار، زكي .البيان العربي بين الجاحظ وابن قتيبة .دار الثقافة.**1988** .

٢٦. هلسا، غالب .أدباء علموني: أدباء عرفتهم .دار الفارابي.**2018** .

٢٧. هيكل، محمد حسين .ثورة الأدب .مكتبة النهضة.**2025** .

٢٨. ياسين، سمر .البنية السردية في كليلة ودمنة .مجلة الدراسات الأدبية، جامعة دمشق.**2022** .

٢٩. يوسف، كمال .قراءة في السرديات الكلاسيكية .دار المدى.**2018** .

ثانيا: قائمة المصادر باللغة الإنكليزية:

1. Abaza, Tharwa. Thoughts of Tharwat Abaza. Dar Al-Hilal. 2022.
2. Abboud, Maroun. In the Laboratory: Analysis and Criticism of the Works of Contemporary Writers. Dar Noufal. 2021.
3. Abboud, Maroun. New and Old: Studies, Criticism, and Discussions. Dar Al-Nahar. 2025.
4. Abdullah, Muhammad. The Structure of Narrative in Abbasid Literature. Dar al-Manhal. 2017.
5. al-Asadi, Abdul Amir. Narrative Art in Ibn al-Muqaffa. University of Baghdad - Master's Thesis. 2002.
6. Al-Bishri, Abdel Aziz. Al-Mukhtar. The Family Library. 2024.
7. Al-Hakim, Tawfiq. Internal Features: An Autobiography. Dar Al-Shorouk. 2007.
8. Al-Hakim, Tawfiq. The Art of Literature. The General Egyptian Book Organization. 2023.
9. Ali, Hussein. An Analytical Study of al-Jahiz's Letters. Dar al-Rafidain. 2015.
10. Al-Jabiri, Muhammad Abed. The Structure of the Arab Mind. Center for Arab Unity Studies. 2006.
11. Al-Jahiz. Al-Bayan wa Al-Tabyin. Dar Sadir. 850 AD.
12. Al-Najjar, Zaki. The Arabic Rhetoric between Al-Jahiz and Ibn Qutaybah. Dar Al-Thaqafa. 1988.
13. Azzam, Abdul Wahab. The Relations Between Arabs and Persians and Their Literature in Pre-Islamic and Islamic Times. Egyptian Book Organization. 2017.
14. Badawi, Abdul Rahman. Encyclopedia of Orientalists. Arab Foundation for Studies. 1980.
15. Barakat, Ali. The Art of the Story in Abbasid Literature. Dar Al-Fikr Al-Arabi. 1995.
16. Faraj, Abdul Hamid. The Narrative Style in the Arab Prose Heritage. Dar al-Fikr al-Arabi. 2020.
17. Halsa, Ghaleb. Writers Who Taught Me: Writers I Knew. Dar Al-Farabi. 2018.
18. Hamdan, Mona. Symbolic Representation in Al-Jahiz's Prose. Al-Mawqif Al-Adabi Journal, Issue 156. 2023.
19. Hassan, Huda. Manifestations of Narrative in al-Jahiz's Literature. Dar Ninawa. 2021.
20. Heikal, Muhammad Hussein. The Literary Revolution. Al-Nahda Library. 2025.
21. Hussein, Taha. Wednesday Talk - Part Two. Dar Al-Maaref. 2024.
22. Ibn al-Muqaffa. Kalila wa Dimna. Edited by Abdul Wahab Azzam. Dar al-Hilal. 750 AD.
23. Ibn Qutaybah. The Springs of News. Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah. Third Century AH.
24. Kamal, Abdul Salam. Transformations in the Art of Narrative in the Arab Heritage. Dar al-Fikr. 2010.
25. Kawtharani, Wagih. The History of Historiography: Trends, Schools, Methods. The Arab Center for Research and Policy Studies. 2012.
26. Sami al-Dahhan. The Art of Narrative in Classical Arabic Literature. Dar al-Nahda al-Arabiya. 1961.
27. Shawqi Dayf. Art and Its Schools in Arabic Poetry. Dar Al-Maaref. 2000.
28. Yassin, Samar. The Narrative Structure in Kalila and Dimna. Journal of Literary Studies, University of Damascus. 2022.
29. Youssef, Kamal. A Reading of Classical Narratives. Dar al-Mada. 2018.